تكـــوين

الـملكة اللغوية

عند طالب الدراسات الإسلامية

فضيلة الشيخ

د. البشـــير عصـــام الـمراكشي

حفظه الله تعالى

عناية وإشراف

أبي عبد الله محمد بن عبده القشبي

وفقه الله

تكوين الملكة اللغوية عند طالب الدراسات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

وددتُ أن أبدأ هذه المحاضرة بشُكر القائمين عليها، خاصةً الأستاذ الدكتور **الفِيلاني**، والإخوة في سلك الدكتوراه، ومجموع الطلبة والأساتذة الذين ساهموا في تنظيم هذه المحاضرة، وسهروا علىٰ أن تتمَّ في أفضل الظروف.

وددتُ أن أشكرهم، ثم تذكرتُ كيف لي أن أشكر صاحب غَيْرةٍ علىٰ غَيرته، وكيف لي أن أحمد لأهل الهمة العالية هِمّتهم العالية في خدمة هذا الدين، وفي خدمة الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وفي خدمة طلبة العلم بتيسير وسائل التعلم الشرعي لهم.

فلا أملك إلا أن أدعو لهم بالدعاء الذي علّمنا إياه رسول الله ﷺ فأقول: جزاكم الله خيرًا.

ثم وأنا أريد أن أتحدث عن اللغة العربية لا يمكنني إلا أن أستحضر في ذهني شخصًا له عليّ بعد الله عز وجل الفضل كله في محبة هذه اللغة، وفي احترامها والرغبة في تعليمها للناس، وهو والدي الكريم الذي هو الآن علىٰ فراش المرض في إحدىٰ المصحات بالرباط، أسأل الله عز وجل أن يشفيه، فهو الذي وَرّثني حُبّها، وعلمني احترامها، وجَنّبني احتقارها.

فلذلك نشأت علىٰ حُب هذه اللغة، ونشأت علىٰ حَمْل همها، وهَم إيصال حُبها إلىٰ الناس أجمعين.

ثم وأنا أُحاضر طلبة الدراسات الإسلامية أَسْتحضر أنني إذ أُحَدّثهم عن أهمية اللغة العربية فكأنني أحمل التمر إلىٰ أهل طيبة الطيبة، فمن المفروض أن تكونوا أنتم معاشر طلبة العلوم الشرعية أن تكونوا حَمَلة هَمّ اللغة، ما بقي في الدنيا أحدٌ يهتم لأَمْر اللغة العربية إلا هؤلاء الطلبة، أقصد طلبة العلوم الشرعية الذين يربطون بين اللغة العربية وبين دين الله عز وجل.

فحين أُحَدّثكم عن هذه الوشيجة التي تربط بين اللغة والدين، عن أي شيء أُحَدّثكم؟ تُراني أُحَدّثكم عن فَهْم القرآن الذي لا سبيل إليه إلا من طريق اللغة، بل من طريق أشعار العرب وآدابهم.

وأنتم تعرفون ما رواه أئمة الأدب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأ علىٰ المنبر قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] فقال: ما أدري ما التخوف؟

فقام رجل من هُذيل –وهذيل هُم أئمة الشعر والأدب والعربية– قام شيخ من هذيل فقال: هذا نعرفه من لساننا؛ التخوف: التَّنَقُّص.

فقال عمر: فهل تعرفون هذا؟ فهل تعرف العرب هذا في كلامها؟

قال: نعم؛ يقول الشاعر الهُذلي:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

يقصد وَصْف الناقة بأن الرَّحل تَخَوّف –تَنَقَّص– من سَنامها الذي وصفه بأنه قَرِدٌ، كما يتخوف الإزميل من الحديد عود الشجرة (عود النَّبعة).

فقال عمر رضي الله عنه وأرضاه: عليكم بديوانكم؛ إنه شِعْر العرب، فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامه.

أم تُراني أُحَدِّثكم عن أهمية العربية في فَهْم الحديث، حديث أفصح مَنْ نَطَق الضاد، أم لعل أحدًا منكم يظن أنه بِلُغة الجرائد المنتشرة اليوم يمكنه أن يفهم كلام أفصح مَنْ نَطَق باللغة العربية ﷺ.

عن أي شيء أُحَدّثكم في فَهْم الحديث من خلال اللغة؟ عن الإعراب مثلًا؟ عن قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لَا يَبُولَنّ أَحَدَكم فِي الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسلُ (يغتسلَ) (يغتسِلْ)**» في بـ ثلاثة أوجه من الإعراب:

يغتسلُ: علىٰ أن الجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (ثم هو ويغتسلُ).

أو يغتسلَ: فعل مضارع منصوب بـ (أنْ) مضمرة بعد حرف العطف، إلحاقًا لـ (ثم) بالواو.

أو الوجه الثالث بالجزم: يغتسلْ: عطفًا علىٰ موضع (يبولَنّ) وهو في موضع الجزم بـ (لا الناهية الجازمة).

ولكل وجهٍ من هذه الأوجه ما ينبني عليه من الفهم ومن المعنىٰ؛ هذا في الإعراب فقط.

فكيف إذا انتقلنا إلىٰ الصرف، وإلىٰ البلاغة، وإلىٰ عموم اللغة العربية وعلومها، وتنزيل ذلك علىٰ فَهْم سُنة رسول الله ﷺ؟

أم تُراني أُحَدّثكم عن الفقه وأصوله، وأنتم أهل الفقه وأصوله، وهل أصول الفقه إلا من اللغة العربية؟

اختلفوا في استمداد أصول الفقه بين مَنْ يذكر الكتاب، السُّنة، العقل، أشياء كثيرة، لكنهم ما اختلفوا في أن أهم ما يُستمَد أصول الفقه منه: هو اللغة العربية.

وفي علم أصول الفقه من المباحث اللغوية الشيء الكثير، مباحث المنطوق والمفهوم، الحقيقة والمجاز، المجمَل والْمُبَيَّن، وغير ذلك من المباحث التي قد يختص الأصوليون بدَرْسها، بل قد يزيدون فيها علىٰ اللغويين، كما ذكر ابن السبكي في بعض كُتبه، لكن استمدادها باللغة العربية.

وتأملوا أن أول مَنْ وضع هذا العلم في الكتب -وهو الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالىٰ- كان -قبل أن يُعَدّ إمامًا في الأصول- إمامًا في العربية، بل كانت

لغته حُجّةً، أي إن أثبت الشافعي تركيبًا أو لفظًا في كلامه هو -لا فيما ينقله، في كلامه هو- كان ذلك حُجّة ودليلًا علىٰ اندراج ذلك في لغة العرب، كما قرره العلماء؛ وليس هذا لكثيرٍ من الأئمة سواه رحمه الله.

أم تُرىٰ أُحَدّثكم عن العقيدة، وما دَخَل الداخل علىٰ عقائد المسلمين إلا حين استعجم لسانهم.

أبو عمرو بن العلاء الإمام اللغوي المشهور حين نَاظَر عمرو بن عُبيد إمام المعتزلة في زمنه كان مما قاله له: من العُجمة أُوتيتَ يا أبا عثمان.

أم أُحَدّثكم عن العلوم الشرعية كلها؟

وجَمَع ذلك الإمام **"الشاطبي"** في كلمته المشهورة: وذلك أن هذه الشريعة عربية، فمَنْ أراد أن يفهمها حق الفهم، وإذا كانت عربية فمَنْ أراد أن يفهمها حق الفهم فلا بد أن يفهم اللغة العربية حق الفهم.

هذا من كلام الشاطبي رحمه الله.

فإذا فرضنا مُبتدئًا في اللغة العربية فهو مبتدئ في الشريعة، أو متوسطًا فهو متوسط في الشريعة -والمتوسط: مَنْ لم يصل درجة النهاية- فإذا بلغ حد الغاية في اللغة العربية بلغ من الشريعة الدرجة نفسها، أو كما قال الإمام رحمه الله تبارك وتعالىٰ.

فانظر إلىٰ هذا التلازم بين اللغة العربية وحُسْن فَهْمها وتَذَوّقها، وبين العلوم الشرعية إجمالًا، أو قل: الشريعة من حيث هي.

وقائل هذا الكلام يعرف عنه الناس في الغالب كتابه في مقاصد الشريعة **"الموافقات"**، ولا يعرفون عنه كتابه في علم النحو وهو أَجَلُّ شرحٍ علىٰ **"ألفية بن مالك"**، أَجَلُّ شروحها علىٰ الإطلاق هو شَرْح الإمام الشاطبي، مطبوع في عشرة أجزاء.

إذًا أنا أعرف وأنتم تعرفون أنه لا قيام لفَهْم شرعي إلا من خلال اللغة العربية، ومع ذلك فإنني أستعين كلمة الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ متحدّثًا عن الموت، فأقول: لا أعرف

يقينًا لا شك فيه أشبه بشَكٍّ لا يقين فيه من أهمية اللغة العربية في طلب العلوم الشرعية.

ما مقصوده من هذا الكلام؟

الإمام الحسن رحمه الله تعالىٰ ذكر هذا عن الموت، لكن أنا أذكره عن أهمية اللغة العربية في العلوم الشرعية من جهة التنظير.

ولكن من جهة التطبيق: تجد الناس يُقبلون علىٰ العلوم الشرعية دون تحصيل الأدنىٰ من العلوم اللغوية، ولأجل ذلك نرىٰ ما نراه اليوم من تَناسُل الفتاوىٰ الشاذة، ومن انتشار الفهم الأعوج لدين الله عز وجل، ومن فُشُوّ الشذوذ الفقهي والأصولي، وفي تفسير القرآن وفي فَهْم السُّنة، كل هذا أو كثير منه علىٰ الأقل ناتجٌ عن سوء معرفة اللغة العربية.

فإذًا هو يقينٌ لا شك فيه، لكن من جهة التطبيق ما أشبهه بشَكٍّ لا يقين فيه.

كلامنا عن تكوين الْمَلكة اللغوية:

أول ما نُقرره: ما الْمَلَكة؟

لا أريد أن أدخل في التفصيلات الموجودة في الكتاب، لكن أعطيكم بعض رؤوس الأقلام، فأُقرِّر ابتداءً (انقطاع في الصوت) إذن في ذاته أعجمي، وأغلب ما تأتينا هذه التراكيب الأعجمية من تغريب الثقافة، الشخص يفكر بالفرنسية أو بالإنجليزية ويكتب بالعربية، فطبيعة الحال يكتب بهذه الطريقة التي ذكرنا.

إذًا هنالك مراحل لهذا التطور التاريخي لا بد من ذِكرها ثم في عصرنا الحديث وصل التحريف إلىٰ ذروته عن طريق التغريب، التغريب الذي يقع في العالِم الإسلامي كله، ولكن خصوصًا في بلاد الغرب الإسلامي بفِعْل اللغة الفرنسية علىٰ وجه الخصوص؛ لأن الاستعمار (بين قوسين) الفرنسي هو استعمار ثقافي وليس عسكريًّا فقط، نَتَجَ من ذلك ما لا يخفىٰ عليكم من وجود نُخَبٍ سياسية وفكرية وثقافية لا تتحدث إلا الفرنسية، ومعها عربية مُفرنسة، وليست عربية تؤهل للارتباط بتراث الأُمّة القديمة.

فإذًا هذا التغريب موجود، وكما يقولون: أفضل طريقةٍ لمواجهة الباطل أو لمواجهة

العدو هي الهروب منه، أليس كذلك؟!

فبدلًا من مواجهة هذا التغريب اللغوي بأن نَتَقَوّىٰ بلغتنا الفصحىٰ، ونُحَمّلها هذه الثقافة الحديثة، وهذه المستجدات التقنية، وأن ندافع عنها في وجه هذه الشبهات، بدلًا من ذلك نَفِرّ إلىٰ الأسلم وهو استعمال العامية، لأن عاميّتنا هي عربية ممسوخة فيها كثير من الألفاظ الأعجمية الغربية –الفرنسية أو غيرها–، فيَفِرّ الناس إلىٰ هذه العامية.

وبطبيعة الحال نصل إلىٰ ما نراه اليوم؛ أن الواحد منّا –أقصد من الطلبة، ولا أتحدث عن عوام الناس– من الطلبة لا تجده يستطيع أن يُكمِل جملة مفيدة بلسانٍ عربي فصيح، إلا أن يَفِرّ إلىٰ كلمةٍ عامية من هناك أو كلمة فرنسية من هنا.

وما دمتم عندكم قدرات علىٰ التنظيم جيدة فأنا أنصحكم الحقيقة وأنصح نفسي أيضًا بأن يكون لكم بين الفينة والأخرىٰ لِنَقُل: يوم دون عامية، هذا مشروع جيد حقيقةً، بطبيعة الحال سيفتضح فيه الكثيرون، لكن لا بأس؛ لأن يفتضحوا في هذه المرحلة خير من أن نستمر في فضيحتنا.

يوم دون عامية، ليكن يومًا في شهر أو في أسبوع أو كذا، نتعمّد فيه أن لا ننطق كلمة عامية، وإذا أردتم شعارًا علىٰ هوىٰ العصر قولوا: -- ((@ كلمة غير مفهومة- ١٦:٢٧)) – عامية، أي هذا هوىٰ العصر، لكن بطبيعة الحال سيكون خُلْفًا، لأن -- ((@ كلمة غير مفهومة- ١٦:٣٢)) –عامية، هي أصلًا من العامية، فينبغي أن نستعمل شعارًا عربيًّا فصيحًا.

فهذا ستستفيدون منه كثيرًا.

وليكن مع كل واحد منكم ورقة وقلم؛ لأنه قَطعًا إذا تَعَمّد تَرْك العامية فإنه سيجد أمامه عراقيل، سيجد لسانه يريد أن ينطق بالمعنىٰ فلا يجد له سبيلًا إلا بالعامية، وحينئذٍ يجد إشكالًا، أريد أن أُعَبّر عن المعنىٰ الفلاني، الذي لا أعرفه إلا بالعامية أو بالفرنسية مثلًا، كيف أعبر عنه، فأكتبه لأبحث عن طريقةٍ جديدة مستحدثة للتعبير عن هذا المعنىٰ، ولكن بلُغة عربية فصيحة.

إذًا هذا التغريب، هذه الأمور المتعلقة.. كل هذه **عقبات متعلقة باللغة في ذاتها**.

هناك **عقبات متعلقة بتدريس اللغة، ولا يخرج تدريس اللغة العربية عن منهجين اثنين:**

- **المنهج التقليدي** المبني علىٰ المتون؛ وهو الموجود في المدارس العتيقة خصوصًا.
- **والمنهج العصري** الأكاديمي المنتشر في الجامعات خصوصًا.

لكل واحد من هذين النوعين أمور حسنة، مناقب، فضائل، وأوجه من أوجه الخلل.

فمثلًا في قضية المتون لا أريد أن أُفَصِّل لكم في فوائد حِفْظ المتون ودراستها، يمكنكم أن تراجعوا كلام "العلامة الطّناحي" في الصفحة السابعة والستين عن جيل المتون، يقول.. ملخص كلامه: هؤلاء اليوم الذين يُحَدّثوننا عن التجديد، وعن النحو الكافي والنحو الشافي والنحو الوافي وغيرها، هؤلاء نشئوا بالمتون، وتربوا وتخرجوا بالمتون، ثم بعد ذلك أرادوا أن يُيسروا لطلبة العصر هذه اللغة العربية، فكتبوا لهم هذه الكتب العصرية بأسلوب يلائمهم، لكن لا ينبغي أن نستهين بالمتون من حيث هي، ولا أن نستهين بهذا الجيل الذي تربىٰ بالمتون، لكن في الحقيقة هنالك نقائص في هذه الطريقة التدريسية، نقائص متعددة؛ التفصيل تجدونه في الكتاب:

منها علىٰ الخصوص: الجمود؛ تجد المدرسين والطلبة يجمدون علىٰ متون معينة لا يُجاوزونها إلىٰ غيرها.

وقد تكون هذه المتون ليست هي الأَوْلَىٰ، بل يكون بعضها أَوْلَىٰ، يعني بعض المتون الأخرىٰ أَوْلَىٰ منها، مثلًا: أعطيكم مثالًا، مثلًا: "لامية الأفعال"، متن حسن جدًّا، لعلكم تعرفونه، هذا متن علىٰ بحر البسيط، نَظَمه "ابن مالك" صاحب "الألفية" رحمه الله تعالىٰ، وجعله تكملة لألفيته، فألفيته فيها النحو، وفي أواخرها الصرف، خاصةً ما تَعَلَّق منه بالأسماء.

ثم احتاج إلىٰ ذِكْر صرف الأفعال، فَنَظَم منظومةً خاصة، هي المشهورة بـ "لامية الأفعال".

هذه اللامية كثير من الناس يظن أنها أول ما يبتدئ به طالب علم الصرف، فتجد الطالب

المسكين درس الآجرومية في النحو، قال: الآن أنا اطمأننت على النحو، سأنتقل إلى الصرف، ينتقل إلى الصرف، ما أصغر متون الصرف؟

"لامية الأفعال"؛ بطبيعة الحال هي نحو مائة وكذا من الأبيات.

فيبدأ حِفْظ **"لامية الأفعال"** فإذا به يكتشف كلامًا يُشبه رقية العقرب، كلام صعب؛ لأن **"لامية الأفعال"** قَصَد فيها **"ابن مالك"** إلى نَظْم الأفعال التي تَشِذّ عن القاعدة، هناك قواعد في الفعل المضارع: تقول: (فَعَل، يَفعَلُ، يفعَلَ، يفْعِلُ، يَفْعِلَ) هناك قواعد في هذا كله، لكن هنالك شذوذات.

فـ **"ابن مالك"** نَظَم هذه الأفعال الشاذة، مشكلته: أنه حين نَظَمها صار النَّظْم ثقيلًا صعبًا، والمشكلة الكبرى: أنه لم يستوعب، يعني ذكر بعض الأفعال.

جاء بعده بحر الحضرمي الشارح، زاد عليه أفعالًا أخرى، ونَظَم أشياء هي التي تضاف إلى **"لامية الأفعال"** باسم **"الاخضرار"**.

ثم جاء **"الحسن بن زَين الشنقيطي"** فأضاف أخرى؛ وهي التي تضاف إلى **"لامية الأفعال"** باسم **"الاحمرار"**.

اجمع **"لامية الأفعال"**، و**"الاحمرار"**، و**"الاخضرار"** يمكن أن تستهلك فيها شهورًا إن كنت ذا ذاكرة وَقّادة، وثاقبة، ثم تحفظها، وتتفلّت بسهولة.

بعد ذلك كله لا تكون مطمئنًا أنك قد حفظتَ كل الأفعال الشاذة؛ لأنه تجد في معاجم العربية ألفاظًا أخرى شاذةً لم يذكرها، لا **"ابنُ مالكٍ"**، ولا **"ابنُ زيدٍ"**، ولا **"الضَّحَّاك"**.

فإذًا جهدٌ كبيرٌ ضخم، وفي المقابل: الفائدة ليست كبيرة؛ لأجل ذلك أنا لا أنصح بـ **"لامية الأفعال"** في الابتداء، ولكن في مرحلة تالية يمكنك أن تقرأها، وإن وجدت مَتنًا صرفيًّا آخر يمكنه أن يفيدك فذلك أفضل وأحسن.

إلى جانب الجمود هنالك إشكالات أخرى في هذه المتون كالحشو، وسوء الترتيب، وأيضًا في التدريس؛ تجد المدرسين اعتادوا الطريقة القديمة؛ فيشتغلون كثيرًا بالصناعة

اللفظية، يقولون: قال الشارح، قال صاحب المتن كذا، وقال الشارح كذا، وعَلّق عليه صاحب الحاشية في كذا، وقرره فلان، تخرج بعد جَهد جهيد..

أذكر مثلًا في دروس.. ليست في العربية، ولكن المشكلة عامة في جميع العلوم الشرعية، في دروس المنطق في شرح "السُّلم المنورق" عند شيخنا "النَّجَّار" رحمه الله تعالىٰ، كنا نُضَيِّع وقتًا ضخمًا في مثل هذه المباحث، وهي مباحث لا تفيدك فيما بعد؛ لأنك من جهة المادة التي تحتاج أن تعرفها وهي موجودة في المتن –متن السُّلّم– المادة في ذاتها ليست صعبة، فَهْمها وإدراكها ليس مُحالًا، ليس صعبًا، ولكن إذا أضفت لها الحواشي والتقريرات والنقاشات اللفظية فإنها فعلًا تصبح صعبةً، وبعض المباحث زِده بحثًا يزدد عُسرًا، بعض المباحث هي هكذا؛ إذا زِدّته بحثًا زاد عُسرًا وصعوبة للأسف الشديد.

إذًا هذه بعض الإشكالات المتعلقة بالمتون.

أيضًا الفقر في التمثيل: تجد مثلًا.. معروف هذا، في شَرْح "ابن عقيل" في النحو، قال: (قام زيد)، تريد جملة اسمية (زيد قائم)، تريدها بالجمع (قام الزيود)، تريدها للإناث (قامت الهندات).. وهكذا.

(قام، يقوم، قُمْ، زيد، هند) وكله يدور حول هذه الألفاظ المعروفة، وأنتم تعرفونها (ضَرَب زيدٌ عمروًا..) إلىٰ آخره.

هناك فقر في التمثيل.

ولذلك تجد الشخص –ما الذي يحدث له؟– يحفظ "ألفية ابن مالك" يفهمها، يُطَبّقها علىٰ (قام زيد، وزيد قائم)، لكن إيتيه بآية من القرآن، وقُلْ له: طَبِّق هذه القاعدة في الاشتغال أو كذا، يقول لك: ما أدري! لا يعرف كيف يُنَزِّل تلك القاعدة علىٰ نَصٍّ غير ذلك الذي مُثّلت له به القاعدة، وهو نَص (قام، يقوم، وزيد، وهنا..) إلىٰ آخره.

إلىٰ غير ذلك..

وفي البلاغة: أنبت الربيع البقل، وبنىٰ الأمير المدينة.

وفي العروض: إِنَّما الذَّلْفاء يَاقُوتةٌ.

وغيرها..

شواهد محفوظة، إذا أردت تنزيلها لا تجد لذلك سبيلًا.

إذًا هذه إشكالات المتون، بطبيعة الحال أنتم أصحاب الجامعة تقولون: جيد جيدًا، الآن المحاضر نَسَف المتون، فإذًا سيمدح الطريقة الجامعية، ولكن للأسف في الطريقة الجامعية الأكاديمية أيضًا إشكالات متعددة، إشكالات كثيرة؛ ذكرتُ بعضها.

العنوان قلت فيه: التدريس الأكاديمي، وتَضَخُّم المنهجية.

في التدريس الأكاديمي خاصة الجامعي: المشكلة ليست في كثرة المعلومات، ولكن في كثرة الكلام عن المنهجية.

بعبارة أخرىٰ: عندنا في جامعاتنا -وهذا لا تخلو منه جامعةٌ في العالم الإسلامي كله-: في اللغة العربية، الناس يتحدثون عن العربية أكثر مما يتعلمون العربية؛ ولذلك تجد الشخص -تجد الطالب؛ هذا بالتجربة والمشاهدة- تجد الطالب لم يدرس من النحو إلا "الآجرومية" وما يُدانيها، ولم يدرس من الصرف إلا نُتَفًا، ولم يدرس من البلاغة إلا شذراتٍ متناثرة، ولكنه يعرف تاريخ النحو، والفرق بين المدرسة الكوفية، والمدرسة البصرية.

ويعرف الخلافات التي وقعت حول نظرية العامل التي ابتدعها ابن مَضَاء، ويعرف أن ابن مَضَاء قد تكلم في نظرية العامل، ويمكنه أن ينتقد سيبويه، وينتقد الخليل، وينتقد النحاة أجمعين، لا إشكال عنده في ذلك؛ لأن عنده المنهجية، الكلام في المنهجية.

ولذلك هناك تضخم في جانب المنهجية، وليس هذا خاصًّا بالعربية، تجده أيضًا في أصول الفقه، وهذا رأيته بنفسي، ما أتحدث من فراغ، رأيت بنفسي طلبة كانوا معنا يتحدث عن "الموافقات"، وعن "الشاطبي"، والمقاصد والمصالح.

لكن الحد الأدنىٰ من "ورقات الجويني"، الحد الأدنىٰ من دراسة المنهجية المتكاملة في علم أصول الفقه من أوله من المباحث اللفظية إلىٰ آخره مباحث التعارض والتراجيح هذا لم يمر عليهم قَط، ليس عنده معلومات كافية، ولكن عنده تضخم في جانب الكلام

المنهجي.

إلىٰ جانب أيضًا مشكلة أخرىٰ، وهي الانقطاع عن الكتب، خاصةً الكتب التراثية، في الجامعة نجد كثيرًا من الناس -يعني هذا يوجد عند الطلبة-، يعني قد يكون بسبب مَطالب من الطلبة، وقد يكون بسبب أن الأساتذة أنفسهم يفرضون ذلك.

قضية أن الطالب لا يدرس كُتبًا تراثية في موضوع دراسته، وإنما يكتفي بما يمليه عليه الأستاذ، أو بالمذكرات التي يُزَوّده بها في آخر السنة أو في أولها.

ولذلك تجد الطالب يتخرج من الجامعة في تخصص معين، إذا قلت: تخصص النحو، وهو لم يدرس أغلب الكتب النحوية المتداولة، وإنما درس منها شيئًا قليلًا، لكن عُمدة عِلمه علىٰ مذكرات أساتذته! وهذا إشكال منهجي خطير.

في الجامعات الغربية -وأنا نادرًا ما أمدح الغرب بشيء، لكن إذا فعلوا ما يستحق المدح فلا أجد إشكالًا في ذلك- في الجامعات الغربية عندهم فكرة قوائم الكتب؛ بمعنىٰ عندك مذكرات، عندك دراسة تدرسها خلال السنة، وعندك قائمة كُتُب أنت مطالب بقراءتها خلال السنة، وفي آخر السنة أنت ممتحن فيها -في هذه الكتب-، هل قرأتها، هل اطّلعت عليها؟.. إلىٰ غير ذلك.

وبعض أساتذتنا كان يعمل هذا، لكن علىٰ سبيل النُّدرة.

إذًا هناك إشكالات وعراقيل متعددة في أساليب التدريس؛ ومنها أيضًا في الجامعة قِلّة الحفظ، إذا كان أهل المتون يبالغون في الحفظ فأهل التدريس الجامعي يبالغون في عدم الاعتدال بالحفظ، والحق وسطٌ بين النقيضين، لا بد من حدٍّ أدنىٰ من الحفظ، هنالك أشياء لا بد من حِفْظها، في كل علم، حتىٰ في الرياضيات؛ في الرياضيات حين تدرسه هناك أشياء تحفظها، ما يمكن أن..، مع أن الرياضيات أبعد العلوم عن الحفظ.

فكيف بالعلوم التي مبناها علىٰ النقل؛ كعلم الحديث، وعلوم القرآن، والعلوم العربية، وغير ذلك.

إذًا هذه إشكالات..

ما أريد أن أطيل عليكم..

والمعروف أن اللغة في ذاتها ثقيلة، لكن إذا أحببتها صارت خفيفة، وصارت لذيذة وممتعة جدًّا إلىٰ أبعد درجات الإمتاع، لكن حين تكون غير.. يعني حين لا تألفها، أو لا تسأنس بها فهي أشبه عندك بالطلاسم، وتقول: هذا المحاضر صدع رؤوسنا بما لا نحتاج إليه، لكن هذا لا يمنعني من الإكمال مع ذلك..

من أين آتي باللغة؟ لا أقصد علوم العربية، لكن اللغة، الألفاظ، التراكيب، من أين آتي بها؟

طُرُق ثلاثة:

أولًا: من المعاجم؛ بعض الناس يظن أن المعجم وُضِع للبحث فيه فقط، لا للقراءة؛ وهذا خطأٌ شائع، يحتاج منّا إلىٰ أن نُزيله من أذهاننا.

بل المعاجم تُقرَأ مِنْ أَلِفها إلىٰ يائها، صحيح أنها مُعدّةٌ للبحث فيها، تريد معنىٰ كلمةٍ فتكشف عنها، أو عن معناها في **"لسان العرب"**، أو في **"تاج العروس"**، أو غيرها من المعاجم.

لكن هنالك معاجم ينبغي أن تُقرَأ، وتبدأ بطبيعة الحال بالتدرج، بالمعاجم الصغيرة كـ **"المصباح المنير"**، وكـ **"كتاب الرازي مختار الصحاح"**، وتنتقل إلىٰ ما بعدها كـ **"القاموس المحيط"**.

ثم تقرأ..

من ألذ –سأقول شيئًا قد لا توافقون عليه، لكن لا إشكال– من ألذ أنواع القراءة: القراءة في المعاجم، خاصة المعاجم الموسوعية كـ **"لسان العرب"**، و**"تاج العروس"**؛ لأنك تجد أمورًا متناثرة، غريبة، تجد كلامًا.. شيء من الكلام في الفقه، شيء من الكلام في الأدب، شيء من الشعر، شيء من العَروض، يعني كلام متناثر، مفيد، فوائد لغوية، فوائد حضارية، ثقافية، بطبيعة الحال أنت لا تقرؤه كما تقرأ روايةً تستريح بها من عناء العمل، وإنما تقرؤه بشيءٍ من الجهد وإعمال الذهن، ولكنها قراءة هادفة ماتعة إلىٰ أبعد الحدود.

إذًا المعاجم..

ثانيًا: الشيء الثاني: الأدب.

والناس في الأدب على صنفين:

- صِنفٌ يقول لك: الأدب كله لا أعتني به -لِمَ يا فلان؟-؛ لأن فيه كثير من المجون، وكثير من الكلام القبيح، وكثير من كذا وكذا وكذا؛ فتجده لا يعتني بالأدب أصلًا.

- وصِنفٌ يجعل الأدب هو غاية مُناه، لكن الأدب عنده هو الروايات العصرية فقط، ما خرجت رواية إلا اقتناها وقرأها.

وأنا لا إشكال عندي في قراءة الروايات، لكن على أن تكون هي الأساس، وإنما تكون مُكَمِّلةً مُرَفّهةً، معينةً على فَهْم المجتمع وفَهْم الواقع، أما أن تبني بها لغتك وأدبك فهذا غير مقبول إطلاقًا.

إذًا الناس بين هذين الطرفين.

نحن نريد من طالب العلوم الشرعية.. لو سألتكم الآن -ولكن دون إحراج كما يقال-: كم قرأتم من كتب الأدب؟ ولنكتفي بتلك الكتب الأدبية المشهورة التي ذكرها **"ابن خلدون"**؛ **"الأدب الكاتب"** لـ **"ابن قُتيبة"**، **"البيان والتبيين"** لـ **"الجاحظ"**، **"الأماني"** لـ **"أبي علي القالي"**؛ هذه الكتب الأساسية هل قرأتموها؟ هل قرأتم **"الأغاني"** لـ **"الأصبهاني"**؟ هل قرأتم كذا وكذا؟

هل الكتب التي قامت سوق الأدب عليها هل قرأتموها يا طلبة العلوم الشرعية؟ أم تركتم هذا لطلبة الأدب؟ لا؛ غير صحيح، حتى طلبة الأدب ربما لا يقرءون هذه الكتب.

فإذًا أقولها لكم -كما أحد مشايخنا يقول هذا الأمر- يقول: إذا كنت تريد..

من تكوين الْمَلكة اللغوية أن يعرف الطالب بعض علوم اللغة العربية، كأن يعرف النحو، والصرف، في حده الأدنى، أو حتى مع التفصيل فيه.

ليس هذا ما أقصده، وإنما أقصد أن يوجد عند الطالب مَلكة، أي هيئةٌ راسخةٌ في النَّفْس؛

تُقَرِّبه من أصحاب اللسان الأول، أقصد بهم أهل العربية في عصور الاحتجاج، الذين كانوا قبل الإسلام وبُعيد الإسلام إلىٰ أن دخلت العُجمة علىٰ الأُمّة، تُقَرِّبهم من هؤلاء وأنا أعلم يقينًا أنه لا سبيل إلىٰ أن يصبح الواحد منا في هذا الزمان مثل هؤلاء الأولين، هذا شيءٌ لا يمكن، لكن علينا أن نحاول أن نقترب منهم ما أمكن؛ لنستطيع –علىٰ الأقل- أن نفهم كلامهم إن خانتنا القدرة علىٰ التحدث بمثل حديثهم، أو الكتابة بمثل ما كانوا يكتبون به.

ولذلك بعض الناس يسأل، يقول: أنت مثلًا تتحدث عن تكوين الْمَلكة اللغوية، حتىٰ هذا المصطلح (تكوين، مِلَكة) هذه ليست مصطلحات قديمة، ليست من كلام أهل اللسان الأول، وأنا لا أشك في ذلك، وأنا لا أدعو أحدًا اليوم أن يكون في مثل أهل سوق عكاظ قديمًا في حديثه وكتابته، لا أطلب من أحدٍ اليوم أن يلغي العامية التي انتشرت فيما بيننا، وأن يلغي هذه المصطلحات والألفاظ والتراكيب التي صِرْنا نستعملها، هذا ليس مطلوبًا ولا مقصودًا، ولا سبيل إليه أصلًا.

وإنما أطلب من الطالب –من طالب العلوم الشرعية خصوصًا- أن يضبط علوم اللغة وزادها الأدبية حتىٰ يستطيع الوصول إلىٰ الفهم، أن ينتقل من درجة الذي يتعامل مع تلك النصوص من خلال مجموعةٍ من الوسائط إلىٰ الذي يمكنه أن يفهم النصوص مباشرةً دونما واسطة.

إذا فتحت كتاب الله أو سُنّة رسوله ﷺ أو أي كتابٍ من كُتب التراث القديم، هل لديك الْمَلكة، الهيئة الراسخة في النَّفْس التي تؤهلك لإدراك هذا الأمر، لفَهْم هذه النصوص، لفَهْم دقائقها، أم ليست لك هذه الْمَلكة؟

إذًا يهمني أن أقرأ لكم هنا تعريفًا ذكرته للْمَلكة اللغوية عمومًا.

فأقول: الْمَلكة اللغوية سَجيّةٌ راسخةٌ في النَّفْس.

تَأَمّل معي: هي سَجِيّة (هيئة)، راسخة في النفس، ليست مجموعةً من المعلومات، أعرف أناسًا كثيرين يحفظون في علم النحو والصرف والبلاغة متونًا مطوّلةً، يحفظون كُتبًا

يمتلئون بمعلومات كثيرةٍ، ولكن ليست لديهم هذه السجية.

هذه السجية تُمَكّنهم من أمورٍ ثلاثة:

أولها: تُمَكِّن صاحبها من قوة الفهم لدقائق الكلام العربي الفصيح؛ هذا الركن الأول.

الركن الثاني: تُمَكِّن صاحبها أيضًا من حُسْن التعبير عن المعاني المختلفة بلسانٍ عربي سالمٍ من أوضار العُجمة ومفاسد اللحن.

ثالثًا: مع القدرة علىٰ الجمع والتفريق والتصحيح والإعلال ونحو ذلك.

هذا التعريف أود أن أشرحه بما يتيسر وبدون إطالة.

الركن الأول: تُمَكِّن صاحبها من قوة الفهم، لم أَقُل: من الفهم؛ إذ ليس كل فَهْمٍ مطلوبًا، وإنما المطلوب فَهْمٌ قوي راسخٌ، يتعدىٰ الفهم السطحي الذي يمكن أن تجده من أي عربي إذا قرأ نَصًّا من نصوص الكتاب أو السُّنة، أي عربي إذا قرأ نصًّا قرآنيًّا أو نَصًّا نبويًّا فإنه يفهم المطلوب منه من هذا النَّص، كالنَّص الذي ذكرتُ لكم آنفًا «**لا يبولَن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه**» هذا كل واحد يفهم، المقصود أن رسول الله ﷺ ينهىٰ عن البول في الماء الدائم، ينهىٰ الاغتسال فيه.

لكن ليس هذا المقصود.

المقصود: قوة الفهم، شيء يتجاوز الفهم السطحي، يتجاوز القشرة الأولىٰ من الفهم إلىٰ لُبّ الفهم.

ثم هذا ليس في أي كلامٍ، وإنما قلت: قوة الفهم لدقائق الكلام العربي الفصيح، أنا لا أطلب منكم أن تَقْوىٰ أفهامكم في هذه اللغة المنتشرة علىٰ الشبكة العنكبوتية، هذه لا تحتاج إلىٰ قوة فَهْم، بل ربما لا تحتاج حتىٰ إلىٰ فَهْم؛ لأنها كلام في كلام، وأغلبها هَدْرٌ للأعمار وتضييع للأوقات.

أطلب منكم إعمال هذه الْمَلكة في دقائق الكلام العربي، وعلىٰ رأسهم بطبيعة الحال: أفصح الكلام؛ وهو كتاب الله عز وجل، ثم الكلام النبوي؛ كلام رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، ثم كلام الأئمة الأولين؛ وهذا من الإشكالات التي يعاني منها الطلبة اليوم

–طلبة العلوم الشرعية–، قَلّ منهم مَنْ إذا قرأ الفقه قرأ في كتاب **"الأم"** لـ **"الشافعي"**، أو من الأصول: قرأ **"الرسالة"** لـ **"الشافعي"**، أو أن يقرأ في العقيدة، في كتبِ العقيدة المُسْنَدَة الأولىٰ.

غالب الناس اليوم؛ إما أن يقرأ في المتون وشروحها علىٰ طريقة المتأخرين، وإما أن يقرأ في كتب المعاصرين والمذكرات الجامعية التي تُوَزّع علىٰ الطلبة؛ وفي كل هذا خير، لا إشكال في ذلك.

لكن الذي ينقطع عن الْمَعين الأصلي وينشغل بالسواقي المتفرعة عنه فإنه يُضَيِّع نفسه، يُضَيِّع جُهده، يُضَيِّع إدراكه وفَهْمه، ولا يستطيع أن يسير قُدُمًا في طريق تَعَلّم العلم الشرعي.

لذلك دائمًا ننصح الناس بالرجوع إلىٰ كتب التراث الأصلية القديمة، القرن الثاني، القرن الثالث، وما أشبه ذلك.

لكن ما السبيل إلىٰ ذلك دون هذه اللغة؟

مثلًا كلام الشافعي ليس متاحًا لكل أحد، هذا كلام فيه صعوبة، وليست الصعوبة فقط من جهة الألفاظ، يمكن أن تضع إلىٰ جانبك معجمًا لتنظر في الألفاظ التي يستعملها.

المشكلة ليست في الألفاظ، المشكلة في التعابير، في طريقة تركيب الكلام، وتنسيقه وترتيبه، لا يمكنك أن تدرك ذلك إلا من خلال ممارسةٍ طويلة، تعطيك مَلَكة راسخةً في قلبك تؤهلك لفَهْم هذا الكلام التراثي، العميق جدًّا.

الكلام العربي لدقائق الكلام العربي الفصيح، بطبيعة الحال إذا كان الكلام غير فصيح لا تُتْعب نفسك في فَهْمه ولا في قوة فَهْمه.

الشيء الثاني الذي نريده –وهذا أيضًا نفتقر إليه، يفتقر إليه طالب العلوم الشرعية اليوم–: حُسْن التعبير عن المعاني المختلفة.

حُسْن التعبير: التعبير موجودٌ اليوم، بل التعبير موجودٌ اليوم بكثرةٍ لا يضاهيها شيءٌ في الأزمنة السابقة، في الأزمنة السابقة كان هنالك نوع نُخباوية –إن صح التعبير– في التعبير، في

الكلام، في الحديث في أمور الدين أو في غيرها من الأمور.

الآن كل الناس يتكلمون في كل شيءٍ، فالتعبير موجود بكثرة، لكن حُسْن التعبير أين هو؟

قليل من قليل من قليل.

ثم حُسْن التعبير ليس عن معنىً واحد، لكن عن المعاني المختلفة.

من الناس مَنْ يستطيع أن -وهذا مشاهد بكثرة- يتحدث في الأمور الفكرية والفلسفية؛ لأن قراءاته كلها في كُتب الفِكْر والفلسفة؛ فَلَه أسلوب فكري، أسلوب فلسفي، يستطيع أن يُعَبِّر عن هذه المعاني، ويستعمل كثيرًا من المصطلحات المغرّبة والمعرّفة وغير ذلك، هذا جميل، لا إشكال فيه.

لكن أريدك أن تُحَدّثني في شيءٍ من دقائق الفقه أو الأصول أو العلوم الشرعية، أو أن تُعَبِّر لي عن شيءٍ من أمور الأدب والمعاني الشاعرية، أو غير ذلك، غير ما أَلِفَه في مجال الفكر والفلسفة؛ ستجده قد تَبَلّد واحتار، ولم يجد إلىٰ جواب سؤالك سبيلًا.

فإذًا لا بد من أن تكون عندك القدرة أن تتحدث في المعاني كلها متىٰ ما شئت، لا أنت تتحدث في شيءٍ دون آخر..

وبطبيعة الحال أن يكون الكلام بلسانٍ عربي سالمٍ من أوضار العُجمة ومفاسد اللحن، وهذا كأنني أطلب اليوم مُحالًا يُلحَق بالْمُحالات المعروفة عند العرب، **"الغول والعنقاء والخِلّ الوفي"**، يبقىٰ بأن يضاف إليها رابع هو الكلام دون لَحْن، التعبير دون إخلالٍ بالقواعد الأولىٰ -قواعد الآجرومية، ما أتحدث عن القواعد التفصيلية- بالقواعد الأولىٰ للنحو والصرف فضلًا عن البلاغة وغيرها.

ثم ثالثًا: نريد من هذه الْمَلكة أن تؤهلك إلىٰ الجمع والتفريق والتصحيح والإعلال وغير ذلك؛ بمعنىٰ أن تجمع بين المتماثلات، أن تُفَرِّق بين المختلفات، أن تُصحح من الكلام ما هو صحيحٌ، أن تحكم بخطأ ما هو خطأ، سواءٌ أكان لفظةً أو تركيبًا أو غير ذلك.

هذه القدرة ليست لأي أحد، وكثيرٌ من الناس اليوم ينقل ما يوجد في كتب الأخطاء الشائعة، ككتاب "قُل، ولا تَقُل"، أو كتاب "الأخطاء الشائعة" لـ "العدناني" أو غير ذلك من الكتب، هي كتب جيدة ومفيدة، ولكنها لا تخلو من اجتهادٍ شخصي لمؤلفيها.

فهذا الاجتهاد الشخصي ليس صوابًا مائة بالمائة، حتىٰ ما يأتيه من المجامع اللغوية، حتىٰ ما يكون فيه الاجتهاد جماعيًّا، مع ذلك ليس ما يذكرونه صوابًا كله، سالِمًا من الغلط، بل فيها أمور اجتهادية تحتمل الأخذ والرد، لكن مَنْ يأخذ ومَنْ يَرُدّ؟

الذي عنده هذه الْمَلَكة، الذي كَوّن من خلال زاده العلمي واللغوي وغير ذلك قُدرة علىٰ أن يقول: (المجامع اللغوية تساهلت في هذا الأمر، فأجازت هذا التركيب، ولا أرىٰ أن هذا التركيب مما ينبغي إجازته) أو علىٰ العكس من ذلك.

هذا مُجمَل ما نريده من هذه الْمَلَكة اللغوية.

من الأمور المهمة جدًّا في باب تكوين الْمَلَكة اللغوية: معرفة العقبات التي تقف أمام تكوينها، العقبات كثيرة، أنا جعلتها في هذا الكتاب **تدور على محورين اثنين:**

المحور الأول: مُرتبط باللغة نفسها.

والمحور الثاني: مُرتبط في وسائل وأساليب تدريس هذه اللغة.

إذًا المحور الأول: اللغة نفسها.

هنالك إشكالات مرتبطة باللغة العربية تجعل تكوين الْمَلَكة صعبًا، ما هذه الإشكالات؟

الإشكال الأول: البُعد عن اللسان الأول بسبب تأثير العلوم العقلية.

أنتم تعرفون جيدًا أنه في زمن معين من تاريخ الأُمّة دخلت علوم اليونان، وعلوم الفرس، والهند، وغيرها، وثقافتهم وآدابهم دخلت إلىٰ الأُمة، وهذا في ذاته ليس عيبًا ولا إشكال فيه.

المشكلة: أن اللغة العربية الأولىٰ تأثرت وتغيرت، وحصلت التغييرات من أوجهٍ

متعددة؛ مثلًا: من جهة الأدب نفسه: نجد أن العرب صاروا يستعملون في كُتبهم مجموعة من الحِكَم المأخوذة عن الفرس، المأخوذة عن اليونان، عن فلان وعلان، بدل ما كانوا يأخذونه فقط من أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين.

وجدنا حتىٰ في نَقْد الشعر، كتاب **"قدامة بن جعفر"** تَكَلّم العلماء فيه كثيرًا من جهة الصناعة المنطقية فيه، والتي تجعل منه كتابًا متأثرًا في نَقْد الأدب العربي بطريقة اليونان، حتىٰ استخرجوا أمورًا كثيرة تَأثر فيها بـ **"أرسطو"**، وتأثر فيها بفلاسفة اليونان، في أمورٍ هي من صميم النقد الأدبي.

الدرس اللغوي، الدرس الأدبي؛ كل هذه تأثرت بهذه المؤثرات الخارجية.

تعرفون كتاب **"السيوطي"**: **"صَوْن المنطق والكلام عن علمي المنطق والكلام"** يذكر فيه تأثير المنطق، وتأثر بـ **"ابن تيمية"** رحمه الله تعالىٰ، ونَقَل منه كثيرًا، ولكن هنالك إضافات من بينها مثلًا: تأثير المنطق في علم النحو، وذكرت هنا مثالًا عن الفرق بين النحو عند سيبويه، والنحو عند المتأخرين..

مثلًا سيبويه يقول: (فالكَلِم: اسم، وفعل، وحرف، جاء لمعنىٰ ليس باسم ولا فِعْل)، تأمل (فالاسم: رجلٌ، وفرسٌ، وحائطٌ، والفعل:..) إلىٰ آخره، تأمل، لم يتكلف تعريف الاسم تعريفًا منطقيًّا، وإنما عَرّفه بالمثال قال: (فالاسم: رجل، وفرس، وحائط).

لكن عندنا نحن: النحو الذي ندرسه بعد أن دخل المنطق إلىٰ علم النحو، ماذا فيه؟

الاسم: ما دل علىٰ حَدَثٍ ولم يقترن بزمان.

والفعل: ما دل علىٰ حَدَثٍ واقترن بالزمان.

والحرف: ما ليس باسم ولا بفِعْل.

أرجو أنني حين أقول هذا لا أُحَدّثكم بشيءٍ من قبيل الصينية أو اليابانية، وإنما هو شيء معروف لديكم فيما أحسب، لأن هذه المفروض أنها مما يُدرس في **"مقدمة الآجرومية"** وأشباهها، ليس حتىٰ من درجة المتون المتقدمة في علم النحو.

الشاهد عندي: هذا التطور بين نحو القديم، ونحوٍ متأخر، كل شيء، في الصرف، في البلاغة، في العلوم كلها.

فإذًا هذا الأمر الأول، وهو هذا التسرب الذي وقع إلىٰ جانب أثر العلوم العقلية هنالك التطور التاريخي لهذه اللغة، اللغة تتطور، هل اللغة في هذا تُخالف اللغات الأخرىٰ، وتمتاز عنها بشيءٍ؟

لا؛ اللغات كلها تتطور، واللغة العربية لا تُخالف في ذلك، لكن للعربية ميزة ليست لغيرها من اللغات، وهي أنها لغة القرآن.

ولذلك فاللغة العربية تمتد علىٰ خمسة عشرة قرنًا أو أكثر، إذا اعتبرنا أنه قبل الإسلام بنحو تقريبًا قرن ونصف فيما يذكره "الجاحظ"، يعني الأدب المنقول عن العرب هو في ما قبل الإسلام بنحو قرن ونصف تقريبًا، يعني خمسة عشر قرنًا، أو ستة عشر قرنًا، في هذه القرون كلها تطورت اللغة العربية، ولكن مع ذلك حافظت علىٰ أصول تركيبها، أصول التركيب ما تزال كما هي.

لكن اقرأ مثلًا فرنسية ما قبل –لِنَقُل:- تسعة أو عشرة قرون مثلًا، لن تفهم منها شيئًا مطلقًا؛ التراكيب كلها تغيرت، بخلاف العربية.

إذًا صحيحٌ أن العربية تعرف تطورًا تاريخيًّا، ولكن أيضًا من الصحيح أنها تحافظ علىٰ أصولٍ، وثوابت في منهجها العام، في أساليبها، في تراكيبها مما يجعلها ثابتة أمام أعاصير التغريب والتحريف.

فإذًا التطور التاريخي لا أطيل بذِكْر تفصيلاته، لكن -كما لا يخفىٰ عليكم- هنالك ألفاظ كان المتقدمون يستعملونها، ولم نعد نفهمها، والعكس بالعكس، كما ذكرت هنا من زمنٍ: لفظة: (أغذَّ السَّيرُ) صار كثير من المعاصرين يستعملونها، ولا يحتاجون إلىٰ فَهْم معناها، أو إلىٰ الكشف عن معناها في معجم من المعاجم.

لكن "الجاحظ" في بعض كُتبه ينقل شَرْحها، يقول: يقال: .. السَّيْر إِذَا جَدَّ فِيه وأَسْرع.

فهذا التطور الدلالي في الألفاظ يقابله أيضًا تطورٌ في التراكيب، هنالك تراكيب أعجمية

غَزَتْنا إلىٰ عصرنا هذا؛ يعني مثلًا أنا أمام حاسوبي في كثير من الأحيان أقرأ: (جاري التحميل)، فأقول: أنا لا أعرف جارًا لي اسمه التحميل، ما معنىٰ (جاري التحميل) هذا لا معنىٰ له عندي.

لو كان الأمر لي لقلت.. لو فرضنا أن جاري صحيحة، نقول: التحميل جارٍ؛ هذا الترتيب الطبيعي، نأتي بالمبتدأ وبعده خبر.

ثم أصلًا (جاري): الطبيعي تقول: (جارٍ) وليس (جاري)؛ لأن (جارٍ) خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة علىٰ الياء المحذوفة، لأنها أصلها جارِيٌّ، استُثقلت الضمة فوق الياء فحُذفت فصارت الياء ساكنة، والتقت بسكون التنوين، القاعدة العامة:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

هذا اللين نحذفه صار (جارٍ)، (التحميل جارٍ)، وانتهىٰ..

(جاري التحميل)، (ممنوع التدخين)! هذه تراكيب يمكن أن أُوَجّهها من ناحية اللغة، خبر مقدم، مبتدأ مؤخر.. إلىٰ آخره، توجيهها ممكن، لكن لا يمنع التوجيه النحوي من قولنا: إن التركيب..

أن تفهم الكتاب والسُّنة فَهْمًا صحيحًا فعليك بكُتب الأدب القديم، هذه الكتب التي أذكرها لك، كتب "ابن قتيبة"، "التوحيدي"، "الجاحظ"، "الأصبهاني"، فلان، علان، هذه الكتب أَضِف إليها الشعر الجاهلي، المعلقات، الأصمعيات، الوحشيات، المفضليات، هذه القصائد التي عليها قام الأدب، وبها قامت اللغة العربية، أَضِف إلىٰ ذلك ما شئت من كتب الأدب التي لا تكاد تُحصىٰ.

فإذًا الاستدلال علىٰ هذا يطول بي.

ولكن خذوها منها مُسَلّمة، وثِقوا بي في هذا الأمر.

إلىٰ جانب الأدب قلنا: المعاجم، الأدب..

سأقول لكم شيئًا عجيبًا: النصوص الدينية الأولىٰ تُكَوِّن الْمَلَكة اللغوية، تعطيك زادًا لُغويًّا، وهي في هذا أفضل من المعاجم؛ ولذلك نعرف من المعاصرين مَنْ لم يقرأ قراءة

لغوية كثيرة، لكنه أقبل علىٰ الحديث النبوي كثيرًا، فصارت لغته فصيحة إلىٰ حدٍّ بعيد.

مثال علىٰ هذا: النصوص الدينية الأولىٰ..

أنا سأقرأ لكم نَصًّا حديثيًّا أو نصوصًا حديثية لتنظروا الفرق بين كلامهم وكلامنا:

مثلًا: قول عمر رضي الله عنه وأرضاه، والحديث في "الصحيح": (فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ).

قل لي: هل تعرف في هذه الجملة التي قرأت لك كلمة واحدة لا تعرف معناها؟

(فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ) الكلام كله مفهوم من جهة الألفاظ، لكن التراكيب، هذا التركيب هل يستطيع أهل العصر أن يأتوا بمثل هذا التركيب إلا علىٰ سبيل التقليد، يعني أن تُقَلّده فتأتي بمثله، هذا وارد، لكن أن تأتي بمثل هذا التركيب صعب جدًّا.

انظر إلىٰ قوله عائشة رضي الله عنها: (يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَىٰ مَا يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعْ النَّاسَ) باستثناء (أسيف) ربما قد لا تفهمها، لكن الكلام كله سهل.

إلىٰ آخره.

قول عمر بن العزيز عن العلماء: (وليفشوا العلم، وليجلسوا حتىٰ يعلم مَنْ لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتىٰ يكون سرًا).

إلىٰ غير ذلك.

هذه النصوص الدينية –طبعًا- القرآن علىٰ رأسها، السُّنة النبوية، الآثار عن السلف، عن الصحابة، عن التابعين، عن الأئمة فيما بعد، هذه النصوص تُكَوِّن لك زادًا لغويًّا مهمًّا جدًّا.

وذكرت بعض الكتب التي يُستفاد منها في هذا السياق.

ثم إلىٰ جانب الزاد العلمي والزاد اللغوي، هنالك الدُّربة التطبيقية، هذا لا أطيل به، لعلي أتركه سرًّا من أسرار الكتاب لكي ترجعوا إلىٰ الكتاب فتكتشفوا بأنفسكم هذه الدربة التطبيقية كيف تكون.

جعلتها علىٰ نماذج، ذكرت التعبير الشفوي، طريقة التدرب علىٰ الكلام بصوت مرتفع،

وتَعَلُّم محسنات الخطابة، طريقة التعبير الكتابي بالتقليد أولًا –مرتبة التقليد أولًا–، ثم مرتبة الاجتهاد ثانيًا.

مرتبة التقليد بتقليد أديب معين.

ثم مرتبة الاجتهاد: بحَلّ النصوص القرآنية، بحل النصوص النبوية، بحل الأبيات الشعرية، إلىٰ غير ذلك.

ثم مَثّلت في الأخير بعض الملكات اللغوية.

إذًا بطبيعة الحال ما ذكرته في هذه المحاضرة لا يعدو أن يكون تشويقًا، وحَثًّا مني لطلبة العلوم الشرعية لكي يلتحقوا برَكْب محبي العربية، وأنا يؤلمني كثيرًا أنني أنظر إلىٰ بعض الشيوخ –شيوخ العلم– الذين يُشار إليهم بالبَنان علىٰ أنهم دعاة وعلماء، ثم هم يتعمدون العامية –لا أقول في خُطبهم؛ فهذا أَمْرٌ قد قلبناه منذ زمان–، وإنما يكتبون بالعامية!

والكتابة هي المرحلة الأخيرة التي ما بقي بعدها للعربية الفصحىٰ شيء؛ لأنك إذا رأيت تاريخ العربية ستجد أن العامية كخطاب شفوي من حيث هي خطاب شفوي كانت موجودة منذ القديم، لكن أن تغزو العامية لغة الكتابة فتصبح الكتابة بالعامية معنىٰ ذلك أن العامية قد غزت العربية في آخر معاقلها، وما غزتها إلا من الثغر الذي يقوم عليه –أو من المفروض أن يقوم عليه– أهل العلم الشرعي، الذين هم يدافعون ويُنافحون عن اللغة العربية.

ولذلك يؤلمني هذا، وبقدر ما يؤلمني بقدر ما يجعلني ذلك أدعوكم وأحثّكم وأنصحكم أن تهتموا بهذه اللغة العربية، وأن تسعوا إلىٰ نَشْرها والتعامل بها، والكتابة بها.

أسأل الله عز وجل أن يكون في ذلك الخدمة الجليلة لكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

بسم الله الرحمن الرحيم

بارك الله في الشيخ الكريم.

تحدث الشيخ الكريم عن العلاقة الوطيدة والرابطة الوثقىٰ بين اللغة العربية وسائر العلوم الشرعية، وبَيّن أن مراتب الناس فيها هي منازل -- ((@ كلمة غير مفهومة- ٠١:٠٢:٤١)) --، مع ذِكْر البَوْن بين التنظيرات العلمية لبيان تلكم الأهمية والتطبيقات العملية.

عَرّف الْمَلكة اللغوية بأنها هيئة راسخة في النفس، تُقرِّبُ الناسَ من الأُوَل أهل اللسان الأول في فَهْم كلامهم دون واسطة.

وبيّن العقبات الحائلة دون المراد والغايات، وقَسّمها:

- إلىٰ عقبات في ذات اللغة.
- وعقبات في تدريسها؛ إنْ علىٰ مستوىٰ التدريس التقليدي، أو مستوىٰ التدريس الأكاديمي.

لينهي محاضرته الماتعة بِطُرُقِ اكتساب هذه الْمَلَكة.

نشكره مجددًا علىٰ حضوره هاهنا، وعلىٰ إفادتنا.

بارك الله فيه.

ثمة أسئلة كثيرة، منها الأسئلة التي أُجيبَ عنها في طي كلام الأستاذ الكريم، الحديث عن المنهج، الاكتسابات، الْمَلكة، إلىٰ غير ذلك.. رُبَّما كُتب هذا السؤال قبل أنْ يصل

الأستاذ إلىٰ ذلك المحور؛ لذلك نضرب علىٰ هذه الأسئلة صفحًا.

ونذكر الأسئلة التي ربما لم يُشَر إليها، منها مثلًا: سؤال..

السؤال الأول: ألا ترون أن للغة خطورة في التعامل مع كتاب الله، كما حدث للمعتزلة، وكيف يمكن أن نجعل من اللغة حافزًا علىٰ الفهم السليم؟

الجواب: لا شكَّ يعني هذا لمْ يقع فقط -أولًا: من باب التصحيح- هذا لم يقع فقط للمعتزلة، وإنما وقع للكثيرين في الأزمنة السابقة، وهو يقع للكثيرين في زمننا هذا، كثيرًا من دعاة بعض المذاهب الهَدّامة يستندون إلىٰ القرآن.

وطريقتهم في ذلك: أنهم يأخذون الفكرة أولًا، يأخذونها من منبعها الغربي أو المتغرب، ويتشبعون بها، ثم يلتمسون لها دليلًا من القرآن، ولا سبيل لهم إلىٰ إيجاد الدليل عليها من القرآن إلا بتطويع اللغة لأهدافهم وأهوائهم؛ لأن القرآن بذاته لا يدل علىٰ هذه المعاني، فيحتاجون إلىٰ التطويع.

ومما يؤسفني كثيرًا أن كثيرًا من المتحدثين -خاصةً في الصحافة والإعلام وغير ذلك- يعتمدون علىٰ لغة الجرائد، علىٰ اللغة العصرية لفَهْم كتاب الله عز وجل، ولاستنباط الأحكام منه، وهذا شيء يوقعهم في ضلالات عجيبة، بل في أضحوكات، ولا أريد أن أذكر الأمثلة، ربما سيخرج بنا هذا من نطاق اللغة إلىٰ نطاق الفكر، والمباحث الفكرية أو ربما العقلية.

لكن مُجملًا: اللغة تُؤخذ من أهلها، ثم حتىٰ ما وقع من المعتزلة مثلًا، من بعض المعتزلة في فَهْمهم للقرآن الكريم هو ليس من اللغة، وإنما من تطويع اللغة وتطويع القرآن للمذهب العقدي.

بمعنىٰ أناس اعتقدوا أولًا ثم استدلوا، مع أن الأصل أن يكون الاستدلال سابقًا علىٰ الاعتقاد، فاعتقدوا ثم استدلوا.

يعني مثلًا الزمخشري رحمه الله تعالىٰ من أئمة المعتزلة -كما لا يخفىٰ عليكم- وهو

يعتقد وفقًا لمذهبه العقدي أن -مثلًا- رؤية الله يوم القيامة غير ممكنة، فإذا واجه نَصًّا قرآنيًّا يخالف هذا المعنىٰ يُؤوله بتأويل قد تحتمله اللغة، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] يقول: إلىٰ النعمة، يعني تنتظر نِعَم ربها! هذا تأويلٌ للغة، وليس استدلالًا بظاهر اللغة.

وأنا حين أدعوكم للتشبع باللغة لفَهْم القرآن لا أقول أبدًا -وهذا مما ينبغي أن يُفهَم-: إن اللغة وحدها يُستند إليها في فَهْم كتاب الله وفَهْم سُنّة رسول الله ﷺ، هناك أصول، أنتم تعرفون أن هنالك عِلمًا قائمًا بذاته هو علم أصول الفقه، فاللغة جزء منه، لا شك أنه جزء أصيل.

لكن اللغة وحدها -كما لا يخفىٰ- ليست كافية؛ لأنها إن لم تضبطها بالقواعد الأصولية يمكن أن تقع في انحرافاتٍ شديدة كما وقع للكثيرين قديمًا وحديثًا.

۞ ۞ ۞

السؤال الثاني: ذكرتم في تفاصيل كلامكم أن **لأبي إسحاق الشاطبي** شَرْح علىٰ **ألفية ابن مالك**، وقد وقفتُ علىٰ طبعتين منها: الأولىٰ صدرت عن دار المركز الإسلامي، والثانية: عن المعهد العالي للمملكة العربية السعودية، وكلاهما بتحقيق الشيخ **عبد الرحمن بن عثيمين** رحمه الله.

سؤالي: أي الطبعتين أجود من وجهة نظركم كمتخصص؟

الجواب: علىٰ كل حال؛ إنما يُسأل عن الترجيح مَنْ له أدلة الترجيح، وأنا لم أطّلع إلا علىٰ طبعةٍ واحدة، فلا سبيل لي إلىٰ معرفة الطبعتين، بل إلىٰ المقارنة بينهما.

طبعة واحدة التي هي طبعة المعهد المذكور، كتاب **"المقاصد الشافية"**، الحقيقة أنها طبعة جيدة، لم أقف فيها علىٰ مثلًا لحن أو خطأ في فَهْم النَّص أو غير ذلك.

لكن المقارنة بين الطبعتين: هذا لا سبيل لي فيه.

۞ ۞ ۞

السؤال الثالث: ما هي الكتب المعتمدة في فقه اللغة؟

الجواب: هذا ذكرته في الكتاب علىٰ كل حال؛ هنالك.. مع أنه في فقه اللغة لا ينبغي في الحقيقة الإطالة كثيرًا في هذا العلم، وإعطاؤه أكثر من حقه.

لكن ذكرت في الكتاب مجموعة من الكتب، من أفضل ما يُبدَأ به كتاب رمضان عبد التواب رحمه الله تعالىٰ، فإنه مفيد جدًّا، وأيضًا الدكتور **"صبحي الصالح" "دراسات في فقه اللغة"**، هو أيضًا مفيد جدًّا.

وعمومًا هذا الفن فنٌّ عصري، لكن قبل قراءة هذه الكتب العصرية يمكن الاستفادة كثيرًا من كتاب السيوطي رحمه الله تعالىٰ **"الْمُزهِر في علوم اللغة"**، هذا يعطيك.. هو كتاب جامع علىٰ طريقة الإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ، يجمع من كل فنٍّ أطرافًا، يعني جَمَع شيئًا كثيرًا في هذا الكتاب، يمكن أن تقرؤه، هو كتاب ماتع، وتضيف له من الناحية المنهجية كتب هؤلاء المعاصرين؛ كتاب **صبحي الصالح، ورمضان عبد التواب، وعبد الواحد وافي** أيضًا له كتاب جيد في الموضوع، وغيرها.

❁ ❁ ❁

السؤال الرابع: هل للمحاضر أو للخطيب أن يتكلم ببعض الألفاظ العامية حتىٰ يُبين للناس؟

وإذا لم يبدأ طالب العلم بـ **"لامية الأفعال"** فبِمَ يبدأ؟

الجواب: جواب السؤال الأول: علىٰ قدر الحاجة، تعرفون العامية في الكلام ينبغي أن تكون كالملح في الطعام، الملح إذا كان يسيرًا في الطعام حَسّنه وجَمّله للآكل، فكذلك العامية بين الفنية والأخرىٰ لِطُرفةٍ، لدعابة، لتبيين أَمْر معين هذا لا إشكال فيه، بل هو مما.. أصلًا لا يمكن الاستغناء عنه.

لكن أن أتحدث عن محاضرين يكتبون، أنا ما أتحدث عن الكلام ولا عن الخُطَب، أتكلم عن الكتابة، خاصة في بعض البلاد الأخرىٰ غير المغرب، يكتبون بالعامية، هذا هو الإشكال الأكبر.

السؤال الثاني كان عن "لامية الأفعال":

هنالك في الحقيقة كتاب متن "نَظْم المقصود"، هو كتاب جيد لِمَنْ كان مُصِرًّا علىٰ حِفْظ متنٍ في الصرف، هذا موجود ومشروح.

لكن إن كنت تريد أن تعمل بنصيحتي لا أنصحك بحِفْظ المتن، وإنما احفظْ.. متون النحو المعروفة، "الآجرومية"، "شذور الذهب"، "الألفية"، وفي آخرها الصرف، ثم تنتقل إلىٰ "لامية الأفعال" في الأخير.

ولكن تقرأ كُتبًا في الصرف، ككتاب "شذا العَرْف"، كِتابٌ لا تنهيه إلا قبل عقدٍ!

السؤال: ولو أنه بعيد نوعًا ما..

هل يمكن أن تُستخدم ألفاظٌ غربية علىٰ أوزان عربية، من باب الاقتصاد، كما في اللغة -- ((@ كلمة غير مفهومة- ٠١:١٢:١٠)) --

الجواب: علىٰ كل حال؛ طريقة العرب في التعامل مع هذه الألفاظ هي طريقة حسنة؛ لأنكم تعرفون أن كثيرًا من الألفاظ الحضارية والثقافية القديمة دخلت إلىٰ اللغة العربية من هذا النوع.

يعني بدلًا.. يعني هذه الطريقة التي ذكرت الأخت السائلة أفضل من طريقة البحث عن مرادف عربي، أولًا: لأن البحث عن مرادف عربي في هذا الظرف الذي نعيش فيه، الذي تُخترَع فيه المصطلحات العلمية والتقنية بالآلاف شيءٌ يفوق القدرة، يستحيل، حتىٰ المجامع اللغوية تعمل علىٰ ذلك، ولكنها لا تستطيع أن تأتي بمرادفاتٍ عربيةٍ مشتقة من جذور عربية لهذه المصطلحات الغربية، صعب جدًّا.

ولذلك تجد أن المستعملين يلجئون إلىٰ الألفاظ الغربية مباشرة، فإذًا أفضل من هذه الطريقة: أن تُعَرَّب الكلمة، أي تُؤخَذ كما هي من اللغة الأجنبية ثم تُعَرَّب، بمعنىٰ أن تُخضَع لقواعد الصرف العربية، يعني تأخذ -- ((@ كلمة غير مفهومة- ٠١:١٣:٤٤)) -- وإن كانت ثقيلة، ولكن لو فرضنا أن الكلمة أخذناها، فأخضعناها لقواعد الصرف العربي كقواعد عدم التقاء ساكنين، كقواعد عدم البدء بساكن، إلىٰ غير ذلك، هذه القواعد العامة في

الاشتقاق والصرف تُخضِع الكلمة لها، وتستعملها، هذا لا إشكال فيه، وهذا بطبيعة الحال عند الحاجة، وليس في كل كلمة.

إذا كانت (الكأس، كوب) كذا، هذه كلمات موجودة في اللغة العربية، لا نستعمل معها هذه الطريقة.

لكن المصطلحات الحديثة في الطب، في علوم الزراعة، في علوم الهندسة، في كذا، إما أن نستعمل هذه الطريقة، وإما أن نبقىٰ ننتظر المجامع اللغوية أن تأتينا بمرادفات عربية.

فهذا الذي فعله في الحقيقة العرب قديمًا، فاستعملوا كثيرًا من الألفاظ، أدخلوها في اللغة العربية، كبعض أنواع الحلويات، وكالنيروز وهو يوم عيد معروف أُخِذ من فارس، وكـ -- ((@ كلمة غير مفهومة- ٠١:١٤:٥٢)) –المأخوذة من اليونان، وغير ذلك من الألفاظ، أدخلوها للغة، وعَرّبوها بهذا المعنىٰ الذي ذُكِر في السؤال.

❂ ❂ ❂

السؤال: يبدو أن إحدىٰ الطالبات تأثرت كثيرًا بهذه المحاضرة، فهل بإمكانها أنْ تُغَيّر شعبة الدراسات الإسلامية إلىٰ شعبة اللغة العربية؛ باعتبار واجِب الوقت؟

الجواب: الإشكالات المرتبطة بالشُّعب والجامعة وكذا، هذه لا أستطيع أن أحسم فيها؛ لأن القضية الآن ليست مفاضلة بين العلوم الشرعية وبين علوم اللغة، هي مفاضلة بين شعبتين، بين طريقتين في التدريس، بين طريقتين في الدراسة، هذا لا أستطيع أن أحسم فيه.

لكن –كما أقول- قاعدة عامة: لو كان الكلام بين اللغة والعلوم الشرعية الأخرىٰ فالكلام أو الإجابة تتعلق بالمؤهلات الشخصية؛ هنالك أشخاص عندهم مؤهلات شعرية أدبية لغوية، حب للغة، هؤلاء يُضَيّعون أنفسهم إن لم يلتزموا باللغة العربية ويدرسوا فيها إلىٰ أبعد حد.

هنالك أناس بالعكس من ذلك؛ يلائمه مثلًا تخصصات القرآن، تخصصات الحديث، وغير ذلك.

فالمؤهل الشخصي هو الذي يحكم في هذا عِلمًا بأن هذه العلوم كلها هي علوم كفائية، إذا قام بها بعض الناس فهذا هو المطلوب، وإذا لم يقم بها أحد أَثِمنا جميعًا.

فأسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما علمنا، وأن يبارك في أوقاتنا وجهودنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

والحمد لله رب العالمين.

بارك الله فيكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.